



إذا لاحظت أن الدولة التي ناصبت الربيع العربي العداء منذ لحظاته الأولى هي ذاتها التي تقود تحولات المنطقة في الوقت الراهن، فإن ذلك يُعد مؤشراً يمهد للإجابة عن السؤال: إلى أين نحن ذاهبون؟

(1)

المنطق أعلاه ختمت به مقالة الثلاثاء الماضي (11/3/2014) التي كان عنوانها "نحن نزرع وإسرائيل تحصد"، وأوردت فيها عدداً من الشهادات التي عبرت عن حفاوة الإسرائيليين الشديدة بالتحولات التي شهدتها مصر، وآخرها حظر أنشطة حركة حماس باعتبارها منظمة "إرهابية" كما أوردت شهادات أخرى عبرت عن المدى الذي بلغه الاسترخاء الإستراتيجي الإسرائيلي في ظل تلك التحولات.

واطمئنان قادة الدولة العربية إلى جسور التفاهم الممتدة مع بعض الأنظمة الخليجية انطلاقاً من التقاء المصالح بين الطرفين في مواجهة "الخطر الإيراني".

ولئن توقع البعض مني أن أفي بما وعدت حين طرحت السؤال: إلى أين نحن ذاهبون؟ فإنني أرجو ألا يحسنوا الظن بي إلى الحد الذي يصور لهم أنني على علم بالآلات التي تنتظر العالم العربي في نهاية المطاف، وهو ما لا أستطيع أن أدعوه، لكنني فقط أستطيع أن أشير إلى بعض علامات الطريق الذي نمضي عليه، متمنياً أن ذلك يساعدنا على تصور المآلات في الأجل المنظور على الأقل.

و قبل أن أعرض ما عندي من تلك العلامات فإنني أضيف إلى ملف الشهادات الكاشفة واحدة مهمة نشرتها جريدة "الشروق" في 7/3 الحالي، لمراسلها في واشنطن الأستاذ محمد المنشاوي، الذي هو في الوقت ذاته خبير بمعهد الشرق الأوسط في واشنطن ومتخصص في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.

في شهادته، ذكر الأستاذ المنشاوي ما نصه: لم يتخيّل أكثر العرب تشاوئاً ما أن يأتي اليوم الذي يذكر فيه مسؤول أميركي أنه "لو غطى وجوه من قابليهم من كبار المسؤولين خلال زيارته الأخيرة للرياض وأبو ظبي وتل أبيب واستمع إلى تصوّراتهم بخصوص قضايا ومستقبل الشرق الأوسط، فلن يستطيع التمييز بين السعودي أو الإماراتي أو الإسرائيلي، حيث إن آراءهم متطابقة حيال تلك القضايا". وهي شهادة أكثف بها دون تعليق، وأزعم أنها تشكّل إحدى علامات الطريق الذي نحن ماضون عليه.

(2)

ما عاد خافيا على أحد أن الدولتين المذكورتين تبننا موقفاً مقاطعاً ورافضاً للربيع العربي منذ لاحت بوادره عام 2011، وكانتا من أشد أنصار الرئيس الأسبق حسني مبارك ونظامه، حتى كان عدم مساندة واشنطن لمبارك إحدى نقاط الخلاف بينهما وبين الإدارة الأميركيّة، ولم تكتف الدولتان بمقاطعة الربيع العربي ولكنهما لم تتوقفاً عن محاصرته ومحاولته إجهاضه في جميع الدول التي بلغتها أصواته، في مشرق العالم العربي ومغربه.

والقرائن الدالة على ذلك كثيرة بعضها خفي تكفلت به الأجهزة الأمنية، وأظهرها مورس من خلال الدعم المالي الذي بدأ ياذخاً في محاولة ضد رياح الربيع ودعوات التغيير التي استصحبته، في حين ظل ممسكاً وممتنعاً عن الدول التي بلغتها أصوات التغيير.

وقد بدأ ذلك موقفاً مفهوماً اقتضاه الحرص على الدفاع عن النفس وتأمين الداخل من عواقب التفاعل مع أصوات الربيع التي انعشت الآمال في مختلف أرجاء العالم العربي.

غير أن قوة تلك الأصوات بدت مقلقة بحيث دفعت الدولتين إلى محاولة وقف ذلك المد خارج حدودها بمختلف السبل، الأمر الذي يسوغ لنا أن نقول إنّهما احتلّا مقعد قيادة الثورة المضادة، وكان تحركهما مشهوداً في ذلك الاتجاه على مختلف المستويات، السياسية والاقتصادية والإعلامية.

ما حدث في مصر كان الإنجاز الأكبر الذي تحقق في ذلك المسعى. ورغم أن خلفيات التغيير لم تكتشف وقائعاً بعد، إلا أن اندفاع البلدين في الحفاوة به ودعمه بعد حدوثه كافٍ في دلالته. إن لم يكن الدافع إلى الإسراع في إثبات الحضور في قلب المشهد المصري مقصوراً على محاولة الفوز بالدولة العربية الأكبر، وإنما اعتبر ذلك باباً أوسع لصد رياح الربيع العربي وإضعافه حيثما وجدت.

رسالة البلدين كانت واضحة من البداية دون إعلان، فهما بالأساس ضد ثورة 25 يناير/كانون الثاني ومع التمرد (المحظور فيهما) الذي أفضى إلى انتفاضة 30 يونيو/حزيران 2011 ومهد لنظام الثالث من يونيو/تموز.

ولست أشك في أن الجموع التي خرجت يوم 30 يونيو/حزيران لم تخطر على بالها التداعيات اللاحقة للحدث، علماً بأن خروجها آنذاك كان إعراضاً عن السخط على أداء حكم الإخوان والدعوة إلى إجراء انتخابات رئاسية مبكرة، لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن مفاجئاً في خبرة الأداء السياسي. أن يمضي الغضب في اتجاه، ثم يقطف ثماره آخرون ويوظفون الغضب باتجاه آخر.

يغرينا المشهد بالمقارنة بما جرى في عصر الرئيس الأسبق أنور السادات الذي انتسب إلى ثورة 23 يوليو/تموز 52 ثم أخرج البلد من مسيرة النضال العربي ومن الصف العربي، ذلك أن ما حدث في مصر مؤخراً يكاد يكرر تلك التجربة.

فما جرى في الثالث من يونيو/تموز 2013 انتسب بدوره إلى ثورة 25 يناير/كانون الثاني 2011 واعتبر انتفاضة 30 يونيو/حزيران امتداداً لها، ثم أخرج مصر من الربيع العربي.

لقد كانت السعودية أول دولة هنأت القاهرة بالتغيير الذي تم ولحقت بها الإمارات، ثم توالّت رسائل الحفاوة بالوضع المستجد مع الحط من شأن ثورة 25 يناير/كانون الثاني في إعلام البلدين..، وبعد ذلك انهالت صور الدعم والمساندة، التي توالّت من باب الاقتصاد وهو الوتر الحساس في أزمة الوضع المصري.

وحتى الآن تم ضخ 16 مليار دولار في الخزانة المصرية. وقرأنا عن مليون مسكن جديد ستقوم الإمارات بتمويلها في مصر، وقيل إن هناك مليوناً أخرى من مجلس التعاون الخليجي.

كما تحدثت الصحف عن آلاف رؤوس الماشية التي تم الاتفاق عليها لإغراق الأسواق المصرية بها. وما تم في الشق الاقتصادي تكرر في عدة مجالات أخرى، أُعلن عن بعضها ولم يعلن عن البعض الآخر.

لست أستبعد أن يكون كل ذلك مسكننا بمساعر التضامن والمرؤة والمقدرة، إلا أنه لم يكن بغير مقابل، ذلك أن الدول -

حتى إذا كانت شقيقةـ ليست جمعيات خيرية، ولكن لها حساباتها ومصالحها التي تتواхها فيما تبعه من سياسات.

(3)

في الخامس من شهر مارس/آذار الحالي سحبـت ثلاثة دول خليجية سفراءـها من قطر لأول مرة في تاريخ مجلس التعاون الخليجي، والدول الثلاث هي السعودية والإمارات والبحرين.

وبعد ذلك بأيام قليلة جرت مناورات عسكرية مصرية إماراتية في أبو ظبي حملـت اسم زايد (1)، وفي الوقت الذي كانت المناورات جارية فيه زار مسقط الرئيس الإيراني حسن روحـاني في مـسعي لتوثيق العلاقات وتنسيق التعاون مع سلطنة عمان، ما الذي يعنيه ذلك؟

عند القراءـة المـتأنية سـتدرك أن سـحبـ السـفـراءـ كان بـدايةـ انهـيارـ وـتفـكيـكـ مجلسـ التعاونـ الخليـجيـ الذيـ تـأسـسـ عامـ 1981ـ.ـ يعنيـ أـيـضاـ أنـ الإـمـارـاتـ أـرـادـتـ أـنـ تـسـتـقـويـ بـمـصـرـ فـيـ مـواـجـهـةـ قـطـرـ مـنـ خـلـالـ الـمـنـاـورـاتـ الـمـشـتـرـكـةـ،ـ وـهـوـ مـاـ عـبـرـتـ عـنـهـ الصـحـفـ الـمـصـرـيـةـ الـتـيـ ذـكـرـتـ أـنـ الـمـنـاـورـاتـ بـعـثـتـ بـرـسـالـةـ إـلـىـ قـطـرـ وـتـرـكـيـاـ (ـالـبعـضـ أـضـافـ الـولـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ).ـ

يعـنـيـ ذـكـرـ أـيـضاـ أـنـ إـيـرانـ اـرـفـعـتـ أـسـهـمـهـاـ أـكـثـرـ فـيـ الـخـلـيـجـ،ـ بـعـدـ التـفـاهـمـاتـ الـتـيـ حـدـثـتـ بـيـنـ واـشـنـطـنـ وـطـهـرـانـ بـخـصـوصـ الـمـشـرـوـعـ الـنـوـوـيـ الـإـيـرـانـيـ،ـ إـذـ وـجـدـتـ أـنـ الـظـرـفـ بـاـتـ مـوـاتـيـاـ لـمـدـ مـزـيدـ مـنـ الـجـسـورـ مـعـ الـسـلـطـنـةـ الـتـيـ شـهـدـتـ التـفـاهـمـاتـ الـإـيـرـانـيـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ (ـأـعـلـنـ يـوـمـ الـأـحـدـ 16ـ أـنـ إـيـرانـ تـعـتـمـدـ بـنـاءـ عـشـرـ مـحـطـاتـ نـوـوـيـةـ عـلـىـ سـوـاـحـلـ الـخـلـيـجـ وـبـرـ عـمـانـ).ـ

هـلـ هـذـاـ كـلـ شـيـءـ؟ـ لـيـسـ بـالـضـبـطـ،ـ لـأـنـ يـعـنـيـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ أـنـ الـأـورـاقـ بـصـدـ الـاـخـتـلـاطـ فـيـ الـخـلـيـجـ،ـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـؤـدـيـ إـلـىـ ظـهـورـ خـرـائـطـ جـدـيـدةـ لـهـ تـسـتـصـبـ تحـالـفـاتـ عـرـبـيـةـ جـدـيـدةـ سـتـكـونـ مـصـرـ طـرـفـاـ فـيـهـاـ،ـ وـسـتـقـومـ السـعـودـيـةـ وـمـعـهـاـ الـإـمـارـاتـ بـدـورـ الـقـيـادـةـ لـهـاـ.

سـنـنـحـيـ جـانـبـاـ مـظـاهـرـ الـفـوـضـيـ الـمـشـرـقـيـ الـتـيـ تـلـوحـ فـيـ سـوـرـيـاـ وـالـعـرـاقـ وـبـدـرـجـةـ أـوـ بـأـخـرـىـ لـبـنـانـ،ـ وـلـنـ تـنـدـحـثـ عـنـ أـصـدـاءـ الـدـاخـلـ فـيـ السـعـودـيـةـ وـالـإـمـارـاتـ حـيـثـ مـكـنـتـهـاـ التـواـزنـاتـ الـجـدـيـدةـ مـنـ تـشـدـيدـ الـقـبـضـةـ الـأـمـنـيـةـ وـإـحـكـامـ قـعـمـ أـصـوـاتـ دـعـاءـ الـإـلـصـاـحـ الـذـيـنـ أـصـبـحـوـاـ يـصـنـفـونـ كـإـهـابـيـنـ،ـ وـهـوـ مـاـ لـاحـظـنـاـ مـنـ مـحـاـكـمـ النـشـطـاءـ فـيـ الـبـلـدـيـنـ،ـ الـتـيـ طـالـتـ حـتـىـ الـمـغـرـدـيـنـ الـذـيـنـ يـسـجـلـوـنـ خـواـطـرـهـمـ عـلـىـ مـوـقـعـ "ـتـويـترـ".ـ

لـنـ نـخـوـضـ أـوـ نـفـصـلـ فـيـ هـذـاـ أـوـ ذـاكـ،ـ لـكـنـنـ سـنـجـدـ أـنـاـ بـصـدـ خـرـائـطـ جـدـيـدةـ لـلـاـسـتـقـطـابـ.ـ وـاـحـدـةـ تـضـمـ السـعـودـيـةـ وـالـإـمـارـاتـ وـالـبـحـرـيـنـ وـبـدـرـجـةـ مـاـ الـكـوـيـتـ.ـ وـمـعـهـاـ مـصـرـ وـالـأـرـدـنـ وـإـسـرـائـيـلـ،ـ وـالـثـانـيـةـ تـضـمـ قـطـرـ وـتـرـكـيـاـ وـتـونـسـ وـبـدـرـجـةـ مـاـ إـيـرانـ وـسـلـطـنـةـ عـمـانـ.ـ وـهـنـاكـ دـائـرـةـ الـدـوـلـ الـتـيـ تـقـفـ فـيـ "ـالـبـيـنـ بـيـنـ"ـ مـثـلـ الـمـغـرـبـ وـالـسـوـدـانـ وـالـيـمـنـ وـمـوـرـيـتـانـيـاـ وـالـجـزـائـرـ.ـ (ـلـيـبـيـاـ لـاـتـزالـ تـبـحـثـ عـنـ مـوـقـعـ).ـ

لـسـنـاـ نـبـالـغـ إـذـاـ قـلـنـاـ إـنـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ مـقـبـلـ عـلـىـ حـالـةـ مـنـ الـفـوـضـيـ الـتـيـ تـظـلـ الـأـبـوـابـ خـلـالـهـاـ مـفـتوـحةـ أـمـامـ مـخـتـلـفـ الـاحـتمـالـاتـ،ـ سـلـبـيـةـ كـانـتـ أـمـ اـيجـابـيـةـ.

(4)

إـذـاـ جـازـ لـيـ أـنـ أـسـتـخـلـصـ عـلـامـاتـ أـخـرـىـ مـنـ هـذـهـ الـخـلـفـيـةـ فـلـعـلـيـ أـوـجـزـهـاـ فـيـمـاـ يـلـيـ:

ــ إـذـاـ كـانـتـ مـصـرـ بـصـدـ الـخـرـوجـ مـنـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـ وـلـوـ مـؤـقـتاـ،ـ فـالـقـدـرـ الـثـابـتـ أـنـاـ خـرـجـتـ مـنـ دـائـرـةـ التـأـثـيرـ،ـ عـرـبـيـاـ وـإـقـلـيمـيـاـ وـفـيـ أـوـضـاعـهـاـ الـاـقـتـصـادـيـةـ الـمـتـرـدـيـةـ وـالـسـيـاسـةـ الـمـأـزـوـمـةـ فـإـنـاـ أـصـبـحـتـ مـفـعـولـاـ بـهـ وـلـيـسـتـ فـاعـلاـ.

ــ إـنـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ لـمـ يـدـعـ بـحـاجـةـ إـلـىـ مـؤـامـرـاتـ تـحـاكـ ضـدـهـ فـيـ الـخـارـجـ،ـ لـأـنـ صـرـاعـاتـ دـولـهـ تـحـقـقـ لـأـيـ مـتـآـمـرـ عـلـيـهـ مـرـادـهـ دـوـنـ حـاجـةـ لـبـذـلـ أـيـ جـهـدـ مـنـ جـانـبـهـ،ـ حـتـىـ أـزـعـمـ بـأـنـ الـصـرـاعـ الـعـرـبـيـ الـعـرـبـيـ أـصـبـحـ الشـاغـلـ الـأـسـاسـيـ "ـوـالـقـضـيـةـ الـمـرـكـزـيـةـ"ـ لـلـأـنـظـمـةـ

- إن التدهور الحاصل في منطقة الخليج الذي لا يزال سياسيا حتى الآن، مرشح لأن يتطور إلى حصار اقتصادي لقطر يضغط عليها بحيث يقطع الطريق البري الذي يوصل إليها من السعودية، وهناك تسريبات لا أريد أن أصدقها تتحدث عن احتمالات المواجهة العسكرية بين البلدين، خصوصا إذا تحققت الدعوة إلى إقامة اتحاد بين الدول الثلاث السعودية والإمارات والبحرين.

- إن ما حدث يمثل ضربة موجعة للربيع العربي، ليست بالضرورة نهاية له، رغم أن إعلام الثورة المضادة مستمر في تشويفه واعتباره كارثة حلت بالأمة، لكنني أزعم أننا بصدق حالة من الجزر والتراجع مماثلة لما شهدته ثورات أخرى. وينزل الباب مفتوحاً لتحول ذلك الجزر إلى مد يعيد الأمل والثقة في الربيع. على الأقل فذلك ما نلاحظه في تحرك شباب الثورة في مصر، الذي يرفض الاستسلام للتراجع ويقاومه بشدة.

- إن قضية فلسطين لم يعد لها ذكر في الخطاب السياسي العربي الراهن. ولذلك فإنني أعتبر أن إسرائيل هي الفائز الأكبر في التحولات الراهنة حيث لم تعد سياساتها محل اعتراف أو حتى اكتراش من جانب الأنظمة العربية. ولا نستطيع أيضا أن نتجاهل ارتفاع أسهم إيران وتنمية ساعدتها خليجاً ومشرقياً.

لا أعرف إلى أين نحن ذاهبون بعد ذلك. لكن الذي أعرفه أننا سائرون على طريق الندامة، وليس السلام بأي حال. والله أعلم بعد ذلك بالآلات.

الجزيرة

المصادر: